

الكيان المحتل وحمية السقوط

محمود النجار

قد يبدو لكثير من الناس أن عبارة "تحرير فلسطين من البحر إلى النهر" لا تعدو كونها ضربا من الوهم أو البلاهة وقلة الدراية المصحوبة بالعواطف والأمانى؛ ذلك أن هؤلاء يقيسون الأمور بمقاييس القوة المادية وموازين القوى، ولا أنكر أنها مقاييس أساسية يجب عدم إغفالها، إلا أنهم لا ينظرون إلى دورة التاريخ، ولا يتوقعون حدوث تغيرات في هذه الموازين، ولا يجيدون المقارنة بين الشعبين العربي واليهودي من حيث الفارق الكبير في العقيدة القتالية والقيم النضالية، والفارق في الروح المعنوية بين اللص وصاحب الأرض. أدرك جيدا بل جيدا جدا أن الحسابات المادية تصب في صالح الكيان المحتل حتى اللحظة، لكنني أدرك أيضا أن ثمة حسابات أخرى لا بد من النظر إليها وتفحصها والبناء عليها؛ فثمة دوائر خمس، تتشكل يوما بعد يوم، وهي على درجة من الأهمية لا بد من النظر إلى أبعادها بعين الوعي والإدراك، بعيدا عن الاستسلام للغطرسة والهمجية الصهيونية.

الدائرة الأولى: التشققات في جدار الكيان المحتل:

بلغت الخلافات بين مختلف أطياف المجتمع الصهيوني، ومكوناته السياسية والعسكرية مبلغا كبيرا؛ فقد أصبح نتيا هو معزولا، وبات خصومه أكثر قدرة على مهاجمته وإخضاعه، وجعله صغيرا في عين الشعب اليهودي الذي بات ينظر إليه نظرة المسؤول المحتال والكذاب الذي يسعى فقط لتثبيت حكمه، والبقاء فيه أطول مدة ممكنة؛ هروبا من الاستحقاقات القضائية التي تنتظره، والتي قد تأخذه إلى السجن صاعرا؛ فهو مدان قانونيا، ومكروه شعبيا على نطاق واسع؛ لأسباب كثيرة أهمها تخليه عن الأسرى لدى المقاومة في غزة، وإصراره على إدامة فترة الحرب، ليدوم له البقاء في السلطة، على حساب سلامة الجنود وعودة الأسرى، وبسبب التعديلات التي أجراها على الهيكل القضائي بغية الهروب من الأحكام القضائية التي يضيق حبلها على عنقه يوما بعد يوم على الرغم من التغيرات التي حاول إحداثها في الهيكل القضائي.

ثمة احتمال أن تؤدي هذه الخلافات بين طائفة كبيرة من الشعب اليهودي مدعومة بطبقة من السياسيين العلمانيين المناوئين لمعسكر نتياهو المدعوم بالأحزاب اليمينية المتطرفة، إلى حرب أهلية، أو فوضى سياسية عارمة، بعد انتهاء العدوان على قطاع غزة، لا سيما حين يخرج الفلسطينيون منتصرين على الرغم من الدمار المادي الذي حاق بهم؛ ففي حين نجد المقاومة بكل أطيافها على قلب رجل واحد؛ نجد في المقابل تشتتا كبيرا في التركيبتين السياسية والاجتماعية للكيان المحتل، وهو مما يضعفه ويقلل من قدرته على

التعامل مع المقاومة الفلسطينية التي تتسم بالصبر والعناد والقدرة على التضحية التي لا يحتملها الجانب الآخر.

الكيان اليوم منقسم على ذاته فيما يتعلق بوقف الحرب وتبادل الأسرى، ففي حين لا تتوقف الاحتجاجات والتظاهرات والقصف الإعلامي المتبادل، يزداد التفاف الشعب الفلسطيني حول مقاومته رغم الخسارات الكبرى في الأرواح والبنية التحتية وهدم البيوت ومعاناة الجوع والعطش وانهيار القطاع الصحي. وإذا ما أضفنا إلى ذلك تصريحات ساسة الكيان ومفكره ومؤرخيه عن اقتراب نهاية الكيان، وما ينتج عنه من اهتزاز الثقة بإمكانية العيش الآمن في ظل الخوف والقلق من القادم، وفي المقابل الأثر الإيجابي على الروح المعنوية للفلسطينيين؛ فإننا نضيف عاملا مهما من عوامل الانهيار المرتقب لهذا الكيان.

الدائرة الثانية: داعمو الكيان وحلفاؤه:

بعد طوفان الأقصى، تغيرت كثير من المعادلات، وانقلبت كثير من الموازين؛ فلأول مرة تطفو القضية الفلسطينية على سطح الكرة الأرضية، فتصير الشغل الشاغل لحكومات العالم وشعوبه ومؤسساته الدولية والمحلية، وتفرض نفسها بقوة على الصفحات الأولى للصحف والمجلات وشاشات التلفزة والإذاعات، ولأول مرة تغير بعض الدول سياساتها وبرامجها المتعلقة بفلسطين، بحيث باتت كثير من الدول التي ظلت تصطف إلى جانب الكيان المحتل، تقف منه موقفا مغايرا. فبعد نحو 40 يوما من طوفان الأقصى، قام رؤساء وزراء كل من إسبانيا وإيرلندا وبلجيكا ومالطا، بتوجيه رسالة تطالب بهدنة إنسانية تنهي الحرب في قطاع غزة، وبعد أيام قليلة من هذه الدعوة انعقدت جلسة الأمم المتحدة للتصويت على مشروع قرار لوقف العدوان، صوتت لصالحه 153 دولة، وعارضته 10 دول، وامتنعت عن التصويت 23 دولة.

ولم يكن ذلك ليحدث لولا أن القضية الفلسطينية اتخذت شكلا مختلفا واكتسبت حضورا طاعيا، بفعل معركة طوفان الأقصى التي أذلت الكيان، ثم بفعل الدمار والقتل الذي تمارسه قوات الاحتلال كنوع من الانتقام من الأطفال والنساء، علما بأن معظم دول أوروبا هي الآن ضد استمرار الحرب، ومن غير المستبعد أن تبدأ كثير من دول أوروبا بالتخلي عن الكيان المحتل شيئا فشيئا، بعد أن بدا لها إجرامه وإصراره على مواصلة قتل المدنيين الفلسطينيين.

وإذا نظرنا إلى الدعوى المقدمة أمام المحكمة الدولية في لاهاي، فإننا نرى مشهدا لم نره من قبل، فقد فضحت الدعوة المرفوعة، بشكل سافر، أكاذيب الاحتلال وإجرامه وتنكيله بالأطفال والنساء واستهدافه للمستشفيات والمدارس والمساجد والبيوت والبنية التحتية وتجويع المدنيين وإعطاشهم، ومنع الدواء والعلاج عنهم، وحرمانهم من أبسط مستلزمات الحياة كالكهرباء والوقود وخدمة الإنترنت، هذا إذا استثنينا

خداعهم للمدنيين وملاحقتهم في الشمال والجنوب على حد سواء، بعد أن أقنعتهم بأن الرحيل إلى الجنوب سيؤمن لهم سلامتهم وسلامة أبنائهم.

إلى ذلك؛ فإن الغالبية العظمى من دول العالم اليوم تقف موقفا مؤيدا لوقف العدوان على قطاع غزة، وكل هذه الدول، بما فيها الولايات المتحدة، تطالب بحل الدولتين، الذي لم يعد يلي رغبات الفلسطينيين بعد طوفان الأقصى الذي عزز في نفوس الفلسطينيين بخاصة، والعرب والمسلمين بعامة فكرة تحرير كل فلسطين من البحر إلى النهر، وزين هذه الفكرة في عيونهم، وباتوا يرونها أمرا ممكنا بل ربما متحققا ولا ينقصه إلا القليل من الوقت.

الدائرة الثالثة: تطور قوة المقاومة واتساع الخطط المستقبلية والتغيرات الإقليمية:

يلاحظ المراقبون عجز قوات الاحتلال عن تحقيق انتصار حقيقي في قطاع غزة، وقال بعضهم "إن الحرب التي تقودها إسرائيل" بلا رؤية؛ أفقدتها الدعم الدولي، وأدخلتها في عزلة عالمية؛ ذلك أنها واجهت مقاومة تتسم بالقوة والعناد والثقة بالنفس والإصرار على إلحاق الهزيمة بالجيش الذي لا يُقهر، وهي التي تتكى في مواجهاتها على أسلحتها التقليدية التي طورتها بنفسها لتدمر أو تعطب دبابة الميركافا التي توصف بأنها أقوى دبابة في العالم، كما تقول الجهات العسكرية المختصة في الكيان المحتل والعالم.

ولو لاحظنا القفزات التي حققتها المقاومة في التصنيع العسكري منذ نشأتها حتى اليوم؛ لوجدنا تطورا هائلا في قدرة هذه الأسلحة على مواجهة آليات العدو، ناهيك عن القوة الصاروخية الكبيرة التي طورتها المقاومة لتصبح مصدر رعب للعدو، هذا بالإضافة للقدرات العسكرية لرجال المقاومة والروح المعنوية التي يتحلون بها، والتي تفتقدها قوات الاحتلال التي تعتمد في حربها على التفوق الآلي والطيران والقنابل ذات القوة التفجيرية المفرطة.

ومع الفارق الكبير في التسليح بين الطرفين؛ نجد أن رجال المقاومة أقدر على الصمود وأكثر إصرارا على الاستمرار في معركة نتوقع أن تؤدي إلى هزيمة العدو وتكبيده خسارة كبرى في مشهد تراجمي عزم مثيله زمانا ومكانا.

في هذه الأثناء يدرك المراقب لسير المعركة القائمة بأن هزيمة المقاومة تبدو شبه مستحيلة وأن كلمة "استسلام" غير موجودة في قاموسها، وعلى الطرف الآخر فقد فشلت قوات الاحتلال على الرغم من همجية القوة وقدرتها التدميرية الهائلة في تحقيق النصر على المقاومة، واكتفت بتحقيق النصر على دم الأطفال والرضع وأمهاتهم.. ولنا أن نتخيل أن تحوز المقاومة على مضادات للطائرات وصواريخ أكثر قوة تدميرية تنطلق من عدة جهات في آن معا، في ظل تغيرات فعلية في العمق الحاضن للمقاومة والمشارك فيها، فعلى

الرغم من التواطؤ الإقليمي العربي إلا أن المقاومة تقف على قدميها متحدية الكل الصهيوني والأمريكي والعربي المتآمر الذي يدعم الكيان المحتل على حساب الفلسطينيين وقضيتهم العادلة. إن التغيرات الإقليمية قادمة لا محالة، فاستمرار الاصطفاف مع الكيان الصهيوني لا يمكن أن يستمر، وسوف يكتشف العرب المرتجفون والمتخاذلون أنهم واقعون تحت وهم القوة الإسرائيلية وقدرتها على حمايتهم، في حين لا يتوانى الكيان المحتل عن فضحهم وكشف خيانتهم وتواطئهم.. وقد كفرت الشعوب العربية بعد طوفان الأقصى بزعاماتها، وسوف تكون لها كلمتها الأقوى في المشهد السياسي القائم، ولا أظن أن أنظمة دول الطوق ستستمر طويلا في ظل الانكشاف الخطير لدورها الخياني الذي بات مكشوفاً للشعوب التي لن تصمت طويلا، فالتغيير قادم؛ لأنه بات مطلبا شعبيا حتميا، فالنار تحتدم في الصدور، وبدأ صبر الشعب العربي ينفد، وبات الخوف من القمع من مخلفات الماضي.

الدائرة الرابعة: الهزيمة النفسية والرعب لدى الشعب اليهودي:

إن أكثر ما أربع نتيماهو وحكومته ومراكز صنع القرار في الكيان المحتل، وزلزل كيانه، هو الرعب الذي سببه 7 تشرين الأول / أكتوبر للشعب اليهودي الذي فقد كثير منه ثقته بالمستقبل، وإحساسه بالأمن؛ فغادر الكيان ما يقرب من مليون يهودي، حسب بعض التقديرات، وقد أفادت القناة العربية الثانية أن 30 في المئة من اليهود يدرسون الهجرة إلى ألمانيا بشكل فعلي .. علما بأن معظم أبناء الطبقة الحاكمة يعيشون خارج فلسطين.

وفي حال استمر الاشتباك بين المقاومة وقوات الاحتلال في الضفة وغزة مع احتمال تنفيذ عمليات فدائية في الداخل الفلسطيني؛ فإن مزيدا من الإحساس بالرعب سينتشر في المجتمع اليهودي الذي بات يحس بعدم الأمان، وهو مما يجعل البنية الاجتماعية قابلة للانهار، ويفاقم حالة التشرذم التي يعاني منها أصلا، ويهيئ الأجواء لمزيد من التقهقر النفسي والضياع الوجودي لهؤلاء القادمين من أوروبا والدول الأخرى، والذين بات كثير منهم يفكرون بمغادرة فلسطين ناهيك عن غادروا بعد طوفان الأقصى ... إلى ذلك فإن التصريحات التي نطق بها كثير من الساسة والقيادات الصهيونية عن اقتراب أجل "دولة إسرائيل" عملت على تحطيم الروح المعنوية للشعب اليهودي، وألجأته إلى حالة من الرعب النفسي، وانهايار الروح المعنوية.

الدائرة الخامسة: وعي الشعوب حول العالم والتأثير على حكوماتها:

بدأت شعوب العالم، ومنها الشعب الأمريكي، تدرك بأن الولايات المتحدة وحلفاءها الأوروبيين يستخدمون قوتهم الخشنة تارة والناعمة تارة أخرى؛ لإبقاء الشعوب المظلومة تحت حراب الظلم

والدكتاتورية، وليس من أجل مساعدتها على التمتع بالحرية والديمقراطية، كما ظلت تدعي طوال الوقت، وكانت شعوب العالم، ومنها نحن العرب، مخدوعة بالادعاءات الغربية التي ظلت طوال الوقت تتحدث عن الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان؛ لتكتشف فجأة أنها كلها ادعاءات كاذبة مخادعة، وأن الغرب عدو لكل ما هو عربي أو إسلامي أو غير إمبريالي، وهو ما يجعلنا الآن نفهم سر صمت الولايات المتحدة وحكومات الغرب على تجاوزات فرنسا في إفريقيا، على سبيل المثال لا الحصر!!..

إن وعي الشعوب بحقيقة توجهات حكوماتها في الغرب والشرق، ستكون له آثاره القريبة والبعيدة؛ فشيئا فشيئا سيقول الناخبون كلمتهم، وستحدث تغيرات إيجابية في أنظمة الحكم في الولايات المتحدة وأوروبا، وستتغير نظرة الحكومات القادمة وإن بشكل نسبي للقضية الفلسطينية، وثمة آمال بحدوث تغيرات جذرية على المدى المتوسط، تصب في صالح القضية الفلسطينية، وأتصور أن بعض دول أوروبا ستتخلى قريبا عن دعم الكيان المحتل، والانحياز للفلسطينيين، لا سيما بعد أن رأت بعينها إجرام الأخير ووحشيته، وانعدام الإنسانية من قاموسه التلمودي المفجع.

وأخيرا، فإن الكيان الصهيوني بصقوره و"حمائمه" يصر على تشكيل واقع فلسطيني على مزاجه المتصهين، بدون أدنى حساب لحقوق الشعب الفلسطيني وطموحاته؛ فهو يحتقر الشعب الفلسطيني، وينظر إليه من عل، ويرى نفسه فوق القوانين، وفوق الطبيعة البشرية؛ وذلك هو العلو الكبير الذي سيتبعه الهزيمة والزوال.

ولنا أن نتأمل عبد الوهاب المسيري وهو يقول: "في حروب التحرير لا يمكن هزيمة العدو، وإنما إرهاقه حتى يسلم بالأمر الواقع"، مضيفا بأن "المقاومة في فيتنام لم تهزم الجيش الأمريكي وإنما أرهقته لدرجة اليأس من تحقيق المخططات الأمريكية، وهو ما فعله المجاهدون الجزائريون على مدى ثماني سنوات (1954-1962) في حرب تحرير بلدهم من الاستعمار الفرنسي"، وهو ما تدركه المقاومة جيدا بعد أن قرأت مشاريع التحرر حول العالم، وأدركت أن فضائل الصبر والتضحية هي الوسائل الوحيدة القادرة على تحرير فلسطين، وأن الحلول المطروحة من قبل الغرب وبعض الدول العربية ليست سوى تضييع للوقت وتمييع للقضية.